بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهى نعمة مُكدّرة ، أما فى الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأىُّ الصفقتين أربح إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

الاستفهام فى الآية استفهام للتعجّب والإنكار لموضوع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشىء ، وهو التراب أو الحُطَام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذى استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد فى الاستقبال ويقلّ فى الماضى ، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيَا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تولّى الحق سبحانه وتعالى بيانها ؛ لأن الناس سوف يتخبّطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناعة إيمانية عقدية فى كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين سيتهورون ويَهْرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرداً ،

وهذه مقولة باطلة يسهُل رَدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القرود الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأتْ ، إنها مجرد شوشرة وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التي تخبَّط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الخالق سبحانه أنْ يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى لا نُصغي إلى أقوال المضلِّين الذين يخوضون في هذه الأمور على غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزَّلَل ؛ لأن مثل هذه القضايا لا تخضع للتجارب المعملية ، ولا تُؤخَذ إلا عن الخالق سبحانه فهو أعلم بما خلق .

يقول تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١) ﴾ [الكهف] أي : لم يكن معي أحد حين خلقتُ السماء والأرض ، وخلقتُ الإنسان ، ما شهدني أحد ليَصفَ لكم ما حدث ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] أيْ : ما اتخذت من هؤلاء المضللين مُساعداً أو مُعاوناً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : احكموا على كل مَنْ يَخوض في قضية الخَلْق هذه بأنه مُضلِّل فلا تستمعوا إليه .

ولكي تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجَدْوى العقل حينما ينضبط في الماديات المعملية ، أما إنْ جنح بنا فلا نجني من ورائه إلا الحُمْق والتخاريف التي لا تُجدي .

وكلمة « العقل » نفسها من العقال الذى يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف فى التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة من وسائل الإدراك ، مثله مثل العين التى هى وسيلة الرؤية ، والأذن التى هى وسيلة السمع .. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً فى الرؤية ، وللأذن حدوداً فى السمع ، فللعقل حدود فى التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أنْ تضبط العقل فى المجال الذى تُجوِّد فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان فى كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا فى قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أىّ مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقين على قضية إلا قضية واحدة ، وهى أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فَمنِ الذى أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

لقد اهتديتُم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التى تبحثون عنها ، وتَرْمَحُون بعقولكم خلفها ، فى حين كان من الواجب عليكم أنْ تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذى يُبين لنا نفسه .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هَبْ أننا فى مكان مغلق ، وسمعنا طَرْق الباب ـ فكلنا نتفق فى التعقُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصوّر أنه امرأة ،

وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أنْ يُظهر لهم عن نفسه لأراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قُلْنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهتْ المسألة .

ولقد ردَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس]

وبقوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ[1] لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]

وبقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴿٢٧﴾﴾ [الروم] فإعادة الشيء أهون من خَلْقه أولاً .

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً

---

(١) قال السدي : السجل ملك مُوكَّل بالصحف ، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٨٣] قال ابن كثير في تفسيره (٣/٢٠٠) : « الصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة . وعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب أى على الكتاب بمعنى المكتوب » .

لتشكيك الناس فى دين الله ، ومن مغالطاتهم فى هذه المسألة أنْ قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحوَّل جسمه إلى رفات وتراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالى عناصر من عناصر الميت ، وتتكوَّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التى تكوَّنت فى الثانى نقُصَتْ من الأول ، فكيف يكون البعث ـ إذن ـ على حَدِّ قَوْلهم ؟

والحقيقة أنهم فى هذه المسألة لم يفطنُوا إلى أن مُشخِّص الإنسان شىء ، وعناصر تكوينه شىء آخر .. كيف ؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين : التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخرجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمَّا يُخرِج ، والشيخ الكبير يُخرِج أكثر مِمَّا يأكل ؛ لذلك يضعف .

فلو مرض إنسان مرضاً أَهْزَلَهُ وأنقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعى ، فهل الذرات التى خرجتْ منه حتى صار هزيلاً هى بعينها الذرات التى دخلتْه حين تَمَّ علاجه ؟ إن الذرات التى خرجتْ منه لا تزال فى (المجارى) ، لم يتكون منها شىء أبداً ، إنما كميَّة الذرَّات ومقاديرها هى التى تقوى وتشخص .

وربنا سبحانه وتعالى رحمة منه ، قال : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التى تُكوِّن فلاناً المشخَّص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾

أى : قُلْ رداً عليهم : إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتَسْتصعبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة فى فترة من الفترات ، ولها إِلْف بالحياة ، فمن السهل أنْ نعيدَ إليها الحياة ، بل وأعظم من ذلك ، ففى قدرة الخالق سبحانه أنْ يُعيدكم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حديد ، وهى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم .

وكأن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم من الحجارة إلى الحديد ؛ لأن الحديد أشدّ من الحجارة وهو يقطعها ، فلو كنتم حجارة لأعدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً .

ثم يترقَّى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى :

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ[1] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾

(١) أى : سيحركونها ويهزونها تعجباً وإنكاراً أو سخرية واستهزاء [القاموس القويم ٢٧٦/٢] .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

أى : هاتوا الأعظم فالأعظم ، وتوغّلوا فى التحدّى والبُعْد عن الحياة ، فأنا قادر على أنْ أهبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على إطلاقها .

وقوله : ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

يكبر : أى يعظُم منْ كَبُر يكْبُر . ومنه قوله تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أى : عَظُمت . والمراد : اختاروا شيئاً يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة بعد ذلك ، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد ، فَهُما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد . ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم فى فَرْضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شىء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد .

ونلاحظ فى قوله تعالى : ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] جاء هذا الشىء مُبْهَماً ؛ لأن الشىء العظيم الذى يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه ، فإن اتفقوا فى أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا فى الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهمة ليشيع المعنى فى نفس كل واحد كُلّ على حَسْب ما يرى .

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً ـ رضى الله عنه ، وكرّم الله وجهه ـ عن أقوى الأجناس فى الكون ، وقد علموا عن الإمام علىّ سرعة البديهة والتمرُّس فى الفُتْيَا ، فأرادوا اختباره بهذا السؤال الذى

يحتاج فى الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .

دخل عليهم الإمام على وهم مختلفون فى هذه المسألة ، منهم من يقول : الحديد أقوى . ومنهم من يقول : بل الحجارة . وآخر يقول : بل الماء ، فأفتاهم الإمام فى هذه القضية ، وانظر إلى دقّة الإفتاء واستيعاب العلم ، فلم يَقُلْ : أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال : أشد جنود الله عشرة .

فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُستَحضرة فى ذهنه ، مُرتَّبة فى تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفَردَ أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذى استحضر درسه وأعدّه جيداً .

قال : « أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْرُ يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله فى الكون الهمّ » .

فهذه الأجناس هى المراد بقوله تعالى : ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ .. (٥١)﴾ [الإسراء] فاختاروا أيّاً من هذه الأجناس ، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

أى : أن الذى خلقكم بدايةً قادرٌ على إعادتكم ، بل الإعادة أهْوَن من الخَلْق بدايةً ، ولكن الجواب لا يكون مُقنعاً إلا إذا كانت النتيجة التى يأتى بها الجواب مُسلّمة . فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أوّل مرة ؟

نعم ، هم مؤمنون بهذه الحقيقة رغم كُفْرهم ، بدليل قولهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف] فهم مقتنعون بذلك ، ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضية أخرى فقالوا : مَنْ يُعيدنا ؟ فإنْ قلت لهم : الذى فطركم أول مرة . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

معنى يُنغض رأسه : يهزُّها من أعلى لأسفل ، ومن أسفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما تقول ، والمتأمل فى قوله ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ﴾ يجده فعْلاً سيحدث فى المستقبل ويقع من مُختارٍ ، والمقام مقام جَدلٍ بين الكفار وبين رسول الله ، وهذه الآية يتلوها رسول الله على أسماعهم ويخبر أنه إذا قال لهم : ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] فسينغضون رؤوسهم .

فكان فى وُسْع هؤلاء أنْ يُكذّبوا هذا القول ، فلا يُنغضون رؤوسهم لرسول الله ويمكرون به فى هذه المسألة ، ولهم بعد ذلك أنْ يعترضوا على هذا القول ويتهموه ، ولكن الحق سبحانه غالبٌ على أمره ، فها هى الآية تُتْلَىَ عليهم وتحْتَ سَمْعهم وأبصارهم ، ومع ذلك لم يقولوا ، مما يدلُّ على غباء الكفار وحُمْق تفكيرهم .

وما أشبه هذا الموقف منهم بموقفهم من حادث تحويل القبلة

حينما قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا .. (١٤٤)﴾ [البقرة]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار ، فقال : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة]

وهذا قَوْلٌ اختيارىّ فى المستقبل ، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية ألاّ يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مَأْخَذاً على القرآن ، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيقولون لا محالةَ : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجُّب الدالّ على استبعاد البعث بعد الموت ، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن ، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث إلى ميعاد الحدث ، وهذا تراجعٌ منهم فى النقاش ، فقد كانوا يقولون : مَنْ يُعيدنا ؟ والآن يقولون : متى ؟ فيأتى الجواب : ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾ [الإسراء]

عسى : كلمة تفيد الرجاء ، والرجاء أمر مُتوقَّع يختلف باختلاف الراجى والمرجو منه ، فإذا قُلْت مثلاً : عسى فلاناً أنْ يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما ؛ لأنه رجاء من غيرى لك ، أما لو قلْت : عسى أنْ أعطيك كذا ، فهى أقرب فى الرجاء ؛ لأننى أتحدَّث عن نفسى ، وثقة الإنسان فى نفسه أكثر من ثقته فى الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأيىَ فلا أعطيك ، أو يأتى وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قُلْتَ : عسى الله أن يعطيك فلا شكَّ أنها أقربُ فى

الرجاء ؛ لأنك رجوت الله تعالى الذى لا يُعجِزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وإنْ كان القائل هو الحق سبحانه وتعالى ، فالرجاء منه سبحانه مُحقَّق وواقع لا شكَّ فيه ؛ فالرجاء من الغير للغير رتبة ، ومن الإنسان لغيره رتبة ، ومن الله تعالى للغير رتبة .

وقد شرح لنا الرسول ﷺ مسألة القرب فقال : « بُعثْتُ أنا والساعة كهاتين »[1] وأشار بالسَّبابة والوسطى ؛ لأنه ليس بعده رسول ، فهو والقيامة متجاوران لا فاصلَ بينهما ، كما أننا نقول : كُلُّ آتٍ قريب ، فالأمر الآتى مستقبلاً قريب ؛ لأنه قادم لا محالةَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢ ﴾

هذا فى يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ عن مُرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها فى الدنيا ؛ لأن الخالق سبحانه حين خلق الخَلْق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح فى الأمور الاختيارية ، فهو مُخْتَار يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا دَخْل للإرادة بها .

فإذا جاء اليوم الآخر انحلَّتْ الإرادة عن الجوارح ، ولم يَعُدْ لها

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥١) ، والبخارى فى صحيحه (١١/٣٤٧ ـ فتح البارى) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [فصلت]

لقد كانت لكم وَلاَية علينا فى دُنْيا الأسباب ، أما الآن فنحن جميعاً مرتبطون بالمسبِّب سبحانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ففى الدنيا ملَّك الناس ، وجعل مصالح أناسٍ فى أيدى آخرين ، أما فى الآخرة ، فالأمر كله والملْك كله لله وحده لاَ شريك له .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى : يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى : تقومون فى طاعة واستكانة ، لا قَوْمَةَ مُسْتنكف أو مُتقاعس أو مُتغطرس ، فكلّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ، ونحن الآن فى الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] ولم يقل : فتُجيبون ؛ لأن استجاب أبلغُ فى الطاعة والانصياع ، كما نقول : فهم واستفهم أى : طلب الفَهْم ، وكذلك ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ أى : تطلبون أنتم الجواب ، وتُلحُّون عليه لا تتقاعسون فيه ، ولا تتأبَّوْن عليه ، فتُسرعون فى القيام .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى : تُسرعون فى القيام حامدين الله شاكرين له ، ولكن كيف والحمد لا يكون إلا على شىء محبوب ؟

نعم ، إنهم يحمدون الله تعالى ؛ لأنهم عاينوا هذا اليوم الذى طالما ذكَّرهم به ، ودعاهم إلى الإيمان به ، والعمل من أجله ، وطالما ألحَّ عليهم ودعاهم ، ومع ذلك كله جحدوا وكذَّبوا ، وها هم اليوم يَرَوْنَ ما كذَّبوه وتتكشّف لهم الحقيقة التى أنكروها ، فيقومون حامدين لله الذى نبَّههم ولم يُقصِّر فى نصيحتهم . كما أنك تنصح ولدك بالمذاكرة والاجتهاد ، ثم يخفق فى الامتحان فيأتيك معتذراً : لقد نصحتنى ولكنى لم أستجبْ .

إذن : فبيانُ الحق سبحانه لأمور الآخرة من النِّعَم التى لا يعترف بها الكفار فى الدنيا ، ولكنهم سيعترفون بها فى الآخرة ، ويعرفون أنها من أعظم نِعَم الله عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى فى سورة (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن] بعد قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] فالآية فى نظرهم تتحدث عن نِقْمة وعذاب ، فكيف يناسبها : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن]

والمتأمّل فى الآية يجدها منسجمة كل الانسجام ؛ لأن من النعمة أن تُنبِّهك بالعظة للأمر الذى ينتظرك والعذاب الذى أُعِدَّ لك حتى لا تقعَ فى أسبابه ، فالذى يعلم حقيقة العذاب على الفعل لا يقترفه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) ﴾ [الإسراء]

الظن : خبر راجح ؛ لأنهم مذبذبون فى قضية البعث لا يقين عندهم بها .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

﴿ إنْ لبثْتُمْ ﴾ أى : أقمتُم فى الدنيا ، أو فى قبوركم ؛ لأن الدنيا متاع قليل ، وما دامتْ انتهت فلن يبقى منها شيء . وكذلك فى القبور ؛ لأن الميت فى قبره شِبْه النائم لا يدرك كم لَبِثَ فى نومه ، ولا يتصوَّر إلا النوم العادى الذى تعوَّده الناس .

ولذلك كل مَنْ سُئِل فى هذه المسألة : كم لبثتم ؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم ، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين الناس ، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث ، والنوم والموت لا أحداثَ فيها ، فكيف - إذن - سنراقب الأحداث والملكة الواعية مفقودة ؟

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

وقال : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾ [المؤمنون]

أى : لم يكُنْ لدينا وَعْىٌ لنعُدَّ الأيام ، فاسأل العادِّين الذين يستطيعون العدَّ .

وفى قصة العزير الذى أماته الله مائة عام ، ثم بعثه : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] على مُقْتضى العادة التى ألفها فى نومه ، فيُوضِّح له ربه : ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

فالمدَّة فى نظر العزير كانت يوماً أو بعض يوم ، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام ، فالبَوْنُ شاسع بينهما ، ومع ذلك فالقَوْلاَن

(١) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده لم يتغير منه شيء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ، ولا أنتن ولا العنب نقص . قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣١٤) .

صادقـان . والحق سبحـانه أعطانا الدليل على ذلك ، فقـد بعث العُزَير من موته ، فوجد حماره عظاماً باليــة يصدُق عليها القول بمائة عام ، ونظر إلى طعامـه وشرابه فوجده كمـا هو لم يتغير ، وكـأنّ العهدَ به يوم أو بعض يوم ، ولو مَـرّ على الطعام مـائة عام لتـغيَّر بل لتـحلَّل ولم يَبْقَ له أثر .

وكأن الخالق سبحانه قبض الزمن وبَسَطه فى وقت واحد ، وهو سبحانه القابض الباسط ، إذن : قَـوْلُ الحق سبحانه مائة عام صدْق ، وقـول العُـزَير ﴿ يَوْمـاً أَوْ بَعْـضَ يَوْمٍ ﴾ صِـدْق أيضـاً ، ولا يجـمع الضِّدَّيْن إلا خالق الأضداد سبحانه وتعالى .

وبعد أن تكلم القرآن عن موقف الكفار من الألوهية ، وموقفهم من النبـوة وتكذيبهم للنبى ﷺ ، ثم عن مـوقفـهم من منهج الله وكفـرهم بالبعث والقيامة ، أراد سبحانه أنْ يُعطينا الدروس التى تُربِّب منهج الله فى الأرض ، فقال تعالى[1] :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ[2] بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾

وسبق أنْ أوضـحنا الفرق بين عبـيد وعباد ، وأنـهما جَمْع عـبد ، لكن عبيد تدل على مَنْ خضع لسيِّـده فى الأمور القهرية ، وتمرَّد عليه فى الأمور الاختيـارية ، أما عباد فتدلّ على مَنْ خـضـع لسيده فى كُلِّ

---

(١) ذكر الواحدى فـى أسبـاب النزول (ص ١٦٦) أن هذه الآية نزلت فى عـمـر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك أن رجلاً من العرب شـتمه ، فأمره الله تعالى بالعـفو . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٠٤) : « ذكره الثعلبى والماوردى وابن عطية والواحدى » .

(٢) نزغ الشـيطان بينهم : أفسـد وأغرى . ونَزْغ الشـيطان : وساوسه ونـخسه فى القلـب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . [لسان العرب ـ مادة : نزغ] .

أموره القهرية والاختيارية ، وفضَّل مراد الله على مُرَاده ، وعنهم قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾ [الفرقان]

وهذا الفَرْق قائم بينهمـا فى الدنيا دون الآخرة ، حيث فى الآخرة تنحلّ صفة الاختيار التى بنينا عليهـا التفرقة ، وبذلك يتساوى الجميع فى الآخـرة ، فكلهم عـبـيـد وعـبـاد ؛ لـذلك قـال تعـالى فى الآخـرة للشيطان :﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾[الفرقان]

فسمَّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء]

أى : العبـارة التى هى أحسن ، و كذلك الفـعْل الذى هو أحسن . والمـعنى : قُلْ لـعـبـادى : قـولوا التى هى أحـسن يـقـولوا التى هى أحسن ؛ لأنهم مُؤتمرون بأمرك مُصدِّقون لكَ .

و ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تعنى : الأحسـن الأعلى الذى تتشقَّق منه كُل أحْسَنيات الحياة ، والأحـسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أحسن الأشياء وأولها ، لذلك كان ﷺ يقول : « خَيْرُ ما قُلْته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »(١) .

لأن من باطنها ينبتُ كل حـسن ، فهى الأحسن الكبيـرة ؛ لأنك ما دُمْتَ تؤمن بالله فلن تتلقَّـى إلا عنه ، ولن تخاف إلا منه ، ولن ترجـوَ إلا هو ، وهكذا يحسُن أمرك كلُّه فى الدنيا والآخرة .

(١) أخرجـه الترمذى فـى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبـد الله بن عمـرو بن العاص رضى الله عنهما . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وأنت حين تقول : لا إله إلا الله ، لا تقولها إلا وأنت مؤمن بها ؛ لأنك تريد أنْ تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفى بنفسك فقط ، بل تحب أنْ يُشاركك الآخرون هذا الخير ؛ لذلك إذا أردنا أن ننطقَ بهذه الكلمة نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . فمعنى أشهد يعنى عند مَنْ لم يشهد ، فكأن إيمانك بها دَعاك إلى نَقْلها إلى الناس ، وبثِّها فيما بينهم .

ويمكن أن نقول ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأحسن هو : كل كلمة خير ، أو الأحسن هو : الجدل بالتى هى أحسن ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

أو نقول : الأحسن يعنى التمييز بين الأقوال المتناقضة وفَرْزها أمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فالأحسن - إذن - تَشيع لتشمل كُلَّ حَسَن فى أىِّ مجال من مجالات الأقوال أو الأفعال ، ولنأخذ مثلاً مجال الجدل ، وخاصة إذا كان فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا شكَّ أن المعارض كَارِهٌ لمبدئك العام ، فإنْ قَسَوْتَ عليه وأغلظْتَ له القول أو اخترتَ العبارة السيئة فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف فى مبدأ عام إلى عَدَاء شخصى .

وإذا تحوَّلَتْ هذه المسألة إلى قضية شخصية فقد أججْتَ أُوَار غضبه ؛ لأنه فى حاجة لأنْ تَرْفُقَ به ، فلا تجمع عليه مرارة أنْ تُخرجه مما ألف إلى ما يكره ، بل حاول أنْ تُخرجه مما ألف إلى ما يحب لتطفىء شراسته لعداوتك العامة ، وتُقرِّب من الهُوَّة بينك وبينه فيقبل منك ما تقول .

يقول تعالى : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ(١) حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد يطلُع علينا مَنْ يقول : لقد دفعتُ بالتى هى أحسن ، ومع ذلك لا يزال عدوى قائماً على عداوتى ، ولم أكسب محبته . نقول له : أنت ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، ولكن الواقع غير ذلك ، إنك تحاول أنْ تُجرِّب مع الله ، والتجربة مع الله شكٌّ ، فادفع بالتى هى أحسن من غير تجربة ، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق .

وما أروعَ قول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايِقُه الفِعَالُ مِنَ التي ومِنَ الذِي

ادْفَع - فَدَيْتُكَ - بالتِي حتَّى تَرَى فَإذَا الذِي(٢)

لكن ، لماذا نقول التى هى أحسن ؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء] والنزْغ هو نَخْس الشيطان ووسوسته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

فإن كنْت مُنتبِهاً له ، عارفاً بحيله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك ؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) ﴾ [الناس] أى : الذى يخنس ويختفى إذا ذُكِرَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حِيَلُه ،

---

(١) الولى : الصديق والنصير ، وهو التابع المحب . والولىّ : ضد العدو . [لسان العرب - مادة : ولى] .

(٢) قوله « حتى ترى فإذا الذى » أى : حتى ترى تحقيق ما فى الآية الكريمة : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فتنقلب العداوة محبة بمداومة دفعك بالتى هى أحسن .

واستجبتَ لوساوسه ، فقد أصبحت فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتى خواطر الشيطان وكأنها مجَسٌّ للمؤمن واختبار لانتباهه وحَذَره من هذا العدو ، فينزغه الشيطان مرةً بعد أخرى ليُجرِّبه ويختبره . فإذا كان النزغ هكذا ، فأنت حين تجادل بالتى هى أحسن لا تعطى للشيطان فُرْصة لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما ، فيُزيِّن لك شَتْمه أو لَعْنه ، وهكذا يتحول الخلاف فى المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية.

لذلك إذا رأيتَ شخصين يتنازعان لا صلةَ لك بهما ، ولكن ضايقك هذا النزاع ، فما عليك إلا أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثًا ، وأتحدّى أن يستمر النزاع بعدها ، إنها الماء البارد الذى يُطفىء نار الغضب ، ويطرد الشيطان فتهدأ النفوس ، وما أشبهك فى هذا الموقف برجل الإطفاء الذى يسارع إلى إخماد الحريق ، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنية صادقة فى الإصلاح ، وليس لك مأربٌ من هذا التدخّل .

والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. (٥٣)﴾ [الإسراء]

تلاحظ أن نَزْغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ دينى عقدى ، بل ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة ، ألم يَقُل يوسف :﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .. (١٠٠)﴾[يوسف]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة ، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة ، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر ، وهذا دليل على خَيْريتهم ، وأنت تستطيع أنْ تُميِّز بين الخيِّر والشرير ، فتجد الخيِّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء ، ثم يتضاءل إلى أهون

الأشياء ، على عكس الشرير تراه يُهدد بأهون الأشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلى قول إخوة يوسف : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. (٩) ﴾ [يوسف] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ .. (١٠) ﴾ [يوسف] وقد اقترح هذا الاقتراح وفى نيته النجاة لأخيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠) ﴾ [يوسف] وهكذا تضاءل الشر فى نفوسهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾ [الإسراء]

أى : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ فهى عداوة مُسْبقة ، قال عنها الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم ـ عليه السلام ـ ويُعلمه أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حَذَر من خواطره ووساوسه ، وبذلك يُربِّى فى ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ فى أذهانهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾ [الإسراء]

أى : كان ولا يزال . وإلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لأتعهدنَّهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

فى هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه إنْ شاء يرحمنا بفضله ، وإنْ شاء يُعذِّبنا بعدله ؛ لأن الحق سبحانه لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منّا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالةَ واقعاً تحت طائلة العقاب ؛ لذلك يَحسُن بنا أن ندعوَ الله بهذا الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب » .

والحق تبارك وتعالى لا يُيئس العُصَاة من فضله ، ولا يملى لهم بعدله ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .

وحينما كان المسلمون الأوّلون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة والتعذيب ولا يجدون مَنْ يمنعهم من هذا التعذيب ، فكانوا يذهبون إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر فى أنحاء العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذى يلجأ إليه هؤلاء المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول : « إن فيها ملكاً لا يُظلَم عنده أحدٌ »[1] .

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

لقد كانوا فى مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ، فالضعيف منهم عاجز عن المواجهة ، والقوى منهم لا يستطيع حماية الضعيف ؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقترح عليه الرد على الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان ﷺ يقول لهم : « لم أومر ، لم أومر ... » .

لأن الله تعالى أراد ألاَّ يبقى للإيمان جندى إلا وقد مَسَّه العذاب ، وذاق ألوان الاضطهاد ليربى فيهم الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد ؛ لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله فى الأرض ، ولا شكَّ أن القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بُدَّ من تمحيص المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام فى عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرَّت به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .

وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربلة المنتسبين لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوى المأمون على حَمْل منهج الله ، والانسياح به فى شتَّى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى فى صفوف المؤمنين مَنْ يحمل راية الإيمان لمغنَم دنيوى ، فالغنيمة فى الإسلام ليست فى الدنيا بل فى جنة عَرْضُها السموات والأرض .

لذلك ، ففى بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله ﷺ : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . قال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ فماذا قال لهم رسول الله ؟ أقال لهم تملكون الدنيا ؟

لا ، بل قال : « لكم الجنة »[1] قالوا : فلك ذلك .

فهذه هى الجائزة الحقيقية التى ينبغى أن يفوز بها المؤمن ؛ لأنه من الجائز أن يموت أحدهم بعد أن أعطى رسول الله هذا العهد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا فى ظل الإسلام ، إذن : فالنبى صادق فى هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنة فلا بُدَّ لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويُواجهون الفتن والمكائد .

فالمعنى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء] بالخروج من مكة مهاجرين إلى ديار الأمن فى الحبشة ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء] أى : عذاباً مقصوداً لكى يُمحِّص إيمانكم ويُميِّز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء]

الوكيل : هو المفوَّض من صاحب الشأن بفعل شيء ما ، والمراد : ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولستَ مسئولاً بعد ذلك عن إيمانهم ، ولستَ وكيلاً عليهم ؛ لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

إذن : قول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً.. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنقاصاً من قَدْره ، بل هى رحمة به ورأفة ، كأنه يقول له : لا تُحمِّل نفسك يا محمد فوق طاقتها ، كما خاطبه فى آية أخرى بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٥٠) من حديث عامر الشعبى وأحمد فى مسنده (٤/١٢٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/٢٩٤) لابن سعد فى الطبقات الكبرى .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء] فالحق - تبارك وتعالى - فى هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول ﷺ يجده عتاباً لصالحه ﷺ رحمةً به ، وشفقةً عليه ، لا كما يقول البعض : إن الله تعالى يُصحح للرسول خطئاً وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣﴾ [عبس]

الله تعالى يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ترك الرجل الذى جاءه سائلاً عن الدين ، وشَقَّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكان الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا حِرْصاً على رسول الله وعلى راحته .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ(1) وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم]

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها . كما تعتب على ولدك الذى سَهِر طويلاً فى المذاكرة حتى أرهقَ نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝٥٥﴾

(1) أخرج النسائى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ۝١﴾ [التحريم] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٨٦) .

قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة فى العلم ، وإنْ كان الحق سبحانه أعلم فما دونه يمكن أنْ يتصفَ بالعلم ، فنقول : عالم . ولكن الله أعلم ؛ لأن الله تعالى لا يمنع عباده أن تشرئب عقولهم وتطمح إلى معرفة شيء من أسرار الكون .

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لا يقتصر علمه عليك يا محمد وعلى أمتك ، وقد سُبقت الآية بقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الإسراء] ولكن علمه سبحانه يسَع السموات والأرض علْماً مُطْلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وبمقتضى هذا العلم يُقسِّم الله الأرزاق ويُوزِّع المواهب بين العباد ، كُلّ على حسب حاله ، وعلى قَدْر ما يُصلحه .

فإنْ رأيتَ شخصاً ضيَّق الله عليه فاعلم أنه لا يستحق غير هذا ، ولا يُصلحه إلا ما قَسَمه الله له ؛ لأن الجميع عبيد لله مربوبون له ، ليس بين أحد منهم وبين الله عداوة ، وليس بين أحد منهم وبين الله نسب .

فالجميع عنده سواء ، يعطى كُلاً على قَدْر استعداده عطاءَ ربوبية ، لا يحرم منه حتى الكافر الذى ضاق صدره بالإيمان ، وتمكّن النفاق من قلبه حتى عشق الكفر وأحب النفاق ، فالله تعالى لا يحرمه مما أحبَّ ويزيده منه .

إذن : لعلمه سبحانه بمَنْ فى السموات والأرض يعطى عباده على قَدْر ما يستحقّون فى الأمور القَهْرية التى لا اختيارَ لهم فيها ، فهُمْ فيها سواء . أما الأمور الاختيارية فقد تركها الخالق سبحانه لاجتهاد العبد وأخْذه بالأسباب ، فالأسباب موجودة ، والمادة موجودة ، والجوارح موجودة ، والعقل موجود ، والطاقة موجودة . إذن : على كل إنسان أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقى بحياته على قَدْر استطاعته .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٥٥) ﴾ [الإسراء]

مَن الذى فضَّل ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذى يُفضِّل بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أن نُفضّل إلا مَنْ فضَّله الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى يملك أن يُجازى على حَسْب الفضل ، أما نحن فلا نملك أنْ نجازى على قَدْر الفضل .

لذلك قال النبى ﷺ : « لا ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى »(١) .

لأن الذى يُفضِّل هو الله تعالى ، وقد نُصّ على هذا التفضيل فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى من أن أُولى العزم من الرسل قد فَضَّلهم عن غيرهم لِمَا تحمَّلوه من مشقة فى دعوة أقوامهم ، ولما قاموا به من حمل منهج الله والانسياح به ، أو من طول مُدّتهم من قومهم .. الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٥/١٤١) : « قال العلماء : هذه الأحاديث تحتمل وجهين : أحدهما : أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس ، فلما علم ذلك قال : أنا سيد ولد آدم .. والثانى : أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس عليه السلام » .